

الله رب العالمين

نظارات في كتاب

البلاغة عند السكاكي

تأليف الدكتور - أحمد مطلوب

بِقَلْمِ - عَبْدُ اللَّهِ الْجَبُورِي

البلاغة من علوم اللغة العربية بها . وبالنقد يقاس الأدب ويبيّن حسنه من ردّيه وجميله من قبيحه ، أو هي روح الأدب والأدب مادتها كما يقول الاستاذ أمين الخوري (١) .

فقد نبعت بذورها وأورق فروعها في ظلال القرآن العظيم ، وقامت لخدمة بيانه ، ولتعين ، أهل التفسير على حل مبهم كلامه وبيانه ، لذلك نرى ومضاتها الأولى بدت في كتب المفسرين الأول وعلماء اللغة ودهاقينة الأدب ، وهذا ما نلمسه في مصنفات ، أبي ذكري يا يحيى بن زياد الفراء (٢٠٧هـ) في كتابه « معانى القرآن » وابي عبيدة عمر بن المثنى (٢٠٨هـ) في كتابه « معجاز القرآن » ، والبرد (٢٨٥هـ) في كامله ، وابن قتيبة (٢٧٦هـ) في « تأويل مشكل القرآن » ، والجاحظ (٢٥٥هـ) في ( البيان والتبيين ) و ( الحيوان ) . . . وغيرهم .

ثم أخذت تتطور نحو الكمال شيئاً فشيئاً على مر الملاوان ، حتى وصلت إلى يد السكاكي الذي هذبها وقسمها إلى فنونها المعروفة من ، معان ، وبيان ، ومحسنات ، وبديع ، ودخل معاني النحو فيها ، والتي اقتطعها من علم النحو وذلك في كتابه المشهور « مفتاح العلوم » الذي يعتبر خلاصة لآراء المدرسة الكلامية أو الاصطلاحية أو طريقة العجم واهل الفلسفة كما يقول جلال الدين السسيروطي (٢٢) .

وقد قيل قدِيماً إن النحو علم نضج واحتراق ، إلا أن البلاغة لم تنضج دراستها بعد كما صرَّح الاقْدُمُونَ<sup>(٣)</sup> .

(١) الملاعة عند السكاكي ص ٧٥ . ومناهج تجديد في التحرر والملاعة ص ١٨٠ .

٢) حسین المحاضرة ١٥٧/١

<sup>٤</sup> (٣) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) مادة بلاغة الاستاذ أمن الخولي ، ٤/٧٠ .

وقد بقي علماؤها والمشتغلون فيها يعيشون ما أخنوه عن السلف فيما يسطرون من الآراء ، حتى مطلع القرن العشرين الذي ذر قرنه على فجر نهضة أدبية واجتماعية وسياسية تلوح في الأفق العربية ، حيث كان للازهر الشريف نصيبيه الوافر من هذه النهضة ، ففي هذه الآونة كانت تتردد في جنبات أروقة معاهده صيحات الامام الاستاذ الاكابر محمد عبده الذي يعتبر المجدد الاول للبلاغة في العصر الحديث وحامل لواطها بين الاعلام المجاهدين في سبيل الحرف الاخضر المعطاء ، وقد تخرج في الازهر رجال تتلمذوا للاستاذ الامام وتأثروا منهجه ، فطفقوا ينشرون آرائهم على الملأ في آثارهم المطبوعة والمسموعة ، ثم أخذت الدراسات الجامعية تتواتي في المنشور – امتدادا لدعوة الامام في التجديد والبعث – وجلها يحمل الكثير من الآراء الجديدة في البلاغة ، وفيها جدة وطرافة وعمق نقد وتحليل رائع لآراء الائمة من رجالها الاقدمين . ومن هذه الدراسات الجليلة « البلاغة عند السكاكي » لدكتور احمد مطلوب وهي البحث الذي نال به درجة الماجستير من جامعة القاهرة .

والكتاب يقوم في أصوله من اثنين وثمانين واربعمائة صفحة من القطع الكبير ، استأثرت فهارس الكتاب بخمس وسبعين صفحة منها ، وقد توزعت الصفحات البوافي مباحث الدراسة التي اشتغلت على مقدمة للمؤلف ، وتمهيد وبابين كبيرين .

وأول ما يطالعنا في صدور الدراسة « الاهداء » ، وقد أبى المؤلف الا ان يجعل اهداءه الى « أفضح فصحاء العرب » ، وابلغ بلغائهم محمد صلى الله عليه وسلم ، منقذ البشرية ، وقائد الامة العربية ، وباني مجدها الخالد » . وقد وضعت بين يدي الكتاب الدكتورة سهير القلماوي – الاستاذة المشرفة على الرسالة ورئيسة قسم اللغة العربية في كلية الآداب – جامعة القاهرة – مقدمة نفيسة رائعة اوجزت القول فيها في عرض المؤلف وصاحبها ، كما بسطت الكلام في المؤلف فيه ، وقد اختتمتها بقولها « ان في البلاغة العربية غابات بل ادغالا كلها ما زالت يكرها تنتظركم الدارسين ، وما الزميل الصديق الدكتور احمد مطلوب الا عالم من الذين تدفعهم انبيل العواطف وانشرف الغايات لدراسة لغة العرب ، تلك اللغة التي لا يمكن ان تطاولها في سمائها لغة لقد عاشت ستة عشر قرنا لغة ادبية حية وما تزال الى اليوم بعد كل العواصف الهوجاء تعيش حياتها الشرة المشمرة » . أه .

ولا أدرى ما الذي حدا بالدكتورة القلماوي الى استعمال الشاذ من كلام العرب باستعمالها صفة جمع المؤنث بصيغة المفرد في قولها « العواصف الهوجاء » فانها لغة ضعيفة شاذة ، وان جرت على اسلات بعض الكتاب الفصحاء المعاصرین ثم تطالعنا مقدمة المؤلف التي استغرقت اثنتي عشر صفحة من صفحات الكتاب أفادت بالقول خللها حول السكاكي وكتابه « مفتاح العلوم » الذي كان مدار البحث وحده للرسالة ، كما عرض للاثار

البلاغية القديمة بالنقد والتعريف وأبان عن فيماها العلمية والنقدية . تم  
يتعطى على استعراض المصنفات البلاغية في العصر الحديث بدءاً من مطلع  
القرن العشرين إلى أيام الناس هذه . بدقة وشمولاً وتحقيق علمي قد ، ولم  
أقت من قبل على مبحث في ذات الموضوع لعاصر من الأدباء والمدارسين .  
فيهـــ المقدمة تعتبر - في رأيـــ تاریخاً موجزاً للبلاغة والآثار التي ألفت فيها  
منذ بداية ومضاتها إلى القرن العشرين .

ولا أدرى كيف سها المؤلف الفاضل عن ذكر كتاب يعتبر من أشهر  
الدراسات البلاغية في فجر النهضة الحديثة إلا وهو « مقدمة لدراسة بلاغة  
العرب » للمرحوم الدكتور أحمد ضييف المتوفى في سنة ١٩٤٥م ، والمطبوع  
في سنة ١٩٢١م - القاهرة مطبعة السفور ، والكتاب يقع في ١٨٧ صفحة  
من القطع الكبير . وقد عرض للبلاغة العربية والبلاغة الفرنسية بدقة  
وشمول ، وأتى فيه بالكثير من الآراء التي كانت تضم في أرحامها جرائم  
التعدد والبعث والجرأة في النقد العميق ، والكتاب في اصوله كان محاضرات  
قد القيت على طلاب الجامعة المصرية في سنة ١٩١٨م . ولم يشر الى كتاب  
آخر للمؤلف ذاته اسمه « بلاغة العرب في انجلس » وهو مطبوع مشهور  
معداول عند القوم .

ثم قسلمنا هذه المقدمة المرانعية التي تمهد بعرض لبيئة السكاكي « حوارزم » متنازلا بالبحث التاريخي لفهم ما زمان الفتوحات الإسلامية الخالد . وعن حكمها وأبرز ملامحها الحسنة وأظهر سماتها العلمية . معتمدا بذلك على أمهات المظان الجغرافية وال تاريخية ، ثم يتناول السكاكي بالبحث والتعريف بمولده ونشأته وحياته العلمية وعن شيوخه وتلامذته وعن مذهبته وعقيدته وعن تقافته فمؤلفاته . . . ثم يقتفي به المطاف إلى الحديث عن مؤلفه الشهير « مفتاح العلوم » - وهو مدار البحث كما أسلفنا قبل قليل - وعن نسخة المخطوطه التي تضمنها مدرجات مكتبات المعموره ، جهد ما وصل إليه تتبعه النادر - وبقدر ما أسمعته فيinars المخطوطات على ندرتها - في المكتبة العربية ، ثم ذكرت على طبعاته ولم يغفل الباحثون عن اسلوبه ومصادره وابراد أقوال المؤمنين من العلماء والادباء التي تناثرت في شتى المصادر والمراجع في مدحه والثناء عليه .

وبعد هذا العرض الجميل يطل علينا أبو الباب الاول الذي احتاجن مائة وأربع عشرة صفحة . تكفلت بالكلام على البلاغة قبل المسكاكى وتعريفها وأهميتها وعرض على أهمات الكتب اللغوية : إدبية التي التمتعت في أرجائها شذرات بلاغية هما . المدرسة الكلامية أو الاصطلاحية أو مدرسة العجم وأهل الفلسفة وكما يترעםها أبو يعقوب المسكاكى ، والمدرسة الأدبية أو مدرسة المشارقة . أو مدرسة العرب التي كان يتصدر زعامتها ابن الأثير ومن جرى في حلبيه من البلاغيين ، كل ذلك انطوى تحت جناح الفصل الاول . أما الفصل الثاني فقد حدم منهجه المسكاكى البلاغي ، أما أثر الفلسفة

في منهجه فقد احتاجها الفصل الثالث .

وفي الباب الثاني الذي استغرق من صفحه (٣٩٧ - ١٨٩) تكلم فيه على منابع بلاغة السكاكي وأثره وأثر الزمخشري والوطواط والرازي وبعض معاصريهم من أمثال ، المطرزي وابن منقد وابن الأثير ، وفي هذا الباب تتجل براءة المؤلف في ارجاع النصوص الى أصحابها والاشارة الى مظانها ، حيث أن السكاكي - كما هو معلوم - كان قد نقل هذه النصوص في مقتاحه دون الاشارة الى منابعها . وهذا مما يدل دلالة قوية على سعة اطلاع المؤلف على كتب البلاغة والادب ، وقد قسما المؤلف في هذا الباب قسوة لاذعة على صاحبه أبي يعقوب السكاكي حيث نعته بالسرق والسطو .

ويأخذك العجب العاجب غداة تجليل طرفك بين أسطار الفصل الذي أقامه على بلاغة القرآن الكريم واعجائزه ، وقد أورد اراء المتكلمين وأقوال البلاغيين في سر اعجائزه ، ثم جاءنا بفصل جميل تحدث فيه عن مصطلحات البلاغة وتحديدها ، وكان خاتمة الباب الثاني الفصل الثالث الذي طوى بين جوانحه الحديث عن أثر السكاكي في البلاغة والنشاط الذي أثاره «المفتاح » ثم تكلم على مدرسة مصر والشام وعرف با ظهر أعلامها من أمثال ابن الزمل堪اني صاحب «البيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن » - الذي قام بنشره المؤلف ذاته وقربته الفضلى الدكتور خديجة الحديشي - وابن أبي الصبع المصري والتنوخي وابن قيم الجوزية والعلوبي صاحب الطراز ، وجعل مسك ختام بحثه هذا «مدرسة السكاكي البلاغية وعرف اراء المعاصرين من العلماء في البلاغة من أمثال الاساتذة الافاضل : الاديب أمين الخولي - رائد البلاغة في العصر الحديث - وأحمد الشتايب صاحب «الاسلوب » ، وعبدالله العلaili ، صاحب المعجم ، وختمه برأيه في دراسة البلاغة ، الذي لخصه فيما هو مقبل ، طرح الفلسفة والاصول والمنطق وعلم الكلام عن البلاغة والاستعانته ببعض الدراسات النفسية وما لها من أثر في الفن الادبي ولكن لا الى الحد الذي تتجاوز فيه البحث البلاغي وتطغى عليه كما طغى المنطق وعلم الكلام على بلاغة القدماء . وهو رأي صائب نرجو أن يوفق الله جل وتعالى ، المؤلف في بعث البلاغة العربية من جديد ويكتب لها السعادة على يديه ، وهو الفارس الكمي . وانا لنعهد فيه كمال العدة ورباطة الجأش ومضاء العزيمة وكل ما يتطلبها الخوض في خضم البحث العلمي العميق الرصين والتجدد الاصيل .

كل هذه الفصول كانت نتيجة استقراء دقيق لمائة وأربعين وستين مصدرا باللغة العربية والتركية . والفارسية . والإنكليزية والإلمانية . وقد نوه المؤلف بفضل الذين أعادوه في نقل النصوص التي لم يفقه بلاغتها في أصولها الاصيلية . كاللغة الالمانية . واللغة التركية واللغة الفارسية ، في هامش ص ٤٢٠ من كتابه . وهذا مما يدلنا على الامانة العلمية التي يتحلى بها المؤلف ، وانها لعمري من أظهر سجراها العلماء ، وأنعم بها من سجية

طيبة تابى جحود جهود ذوى المعاونة والافضال ، والتي يعز علينا أن نراها اليوم مستكنة في طوايا التكران والجحود .

والدراسة محالة بفهارس تفصيلية اشتملت على فهرس الموضوعات وفهرس الآيات وال سور وفهرس القوافي وفهرس مصطلحات البلاغة وفهرس الاعلام وفهرس الكتب والأماكن ..

وتتجلى عبقرية المؤلف في نقده الاراء البلاغية الشائعة عند ذوى الصنعة من السلف الصالحة ، ونمحىصه لها ، فتراء في أثناء دراسته ييقدا فذا ، وحكمـا تدعـمـهـ النـصـفـةـ والـعـدـلـ فيـ حـكـوـمـاتـهـ .. وقد شـدـنـيـ العـجـبـ والـغـبـطـةـ حينـماـ قـرـأـتـ اـنـتـصـارـ المؤـلـفـ لـابـنـ قـتـيبةـ منـ الخـلـيـفـةـ الـذـيـ أـدـرـكـتـهـ حـرـفـةـ الـادـبـ -ـ اـبـنـ المـعـتـزـ ،ـ فـيـ صـفـحةـ ٨٦ـ مـنـ كـتـابـهـ ،ـ حـيـثـ رـدـ لـهـ حـقـهـ فـيـ أـسـبـقـيـتـهـ بـالـكـلـامـ عـلـىـ فـنـونـ الـبـلـاغـةـ فـيـ كـتـابـهـ الـمـشـهـورـ «ـ تـأـوـيلـ مشـكـلـ الـقـرـآنـ »ـ .ـ وـكـانـ الشـائـعـ قـبـلـ هـذـاـ أـنـ كـتـابـ «ـ الـبـدـيـعـ »ـ هـوـ أـوـلـ مـؤـلـفـ يـتـسـأـلـ يـتـسـأـلـ الـادـبـ تـنـاوـلـاـ فـنـيـاـ ،ـ وـاـنـهـ يـعـدـ فـتـحـاـ جـديـداـ فـيـ عـالـمـ الـبـلـاغـةـ ..

وتحصيل الحاصل فكتاب «ـ الـبـلـاغـةـ عـنـ السـكـاكـيـ »ـ منـ الـدـرـاسـاتـ التيـ تقـفـ فـيـ طـلـيـعـةـ الـدـرـاسـاتـ الـبـلـاغـيـةـ شـاهـمـةـ كـالـطـوـدـ العـتـيدـ بـرـصـانـتـهـاـ وـعـقـمـ تـحـلـيـلـهاـ وـرـوعـةـ نـقـدـهاـ ،ـ وـقـدـ نـعـجـبـ مـنـ حـرـصـ المـؤـلـفـ عـلـىـ اـخـرـاجـ كـتـابـهـ بـالـصـورـةـ الـتـيـ تـقـسـاـقـ وـقـيـمـتـهـ الـعـمـلـيـةـ ،ـ حـيـثـ أـنـهـ قـدـ خـلاـ مـنـ الـاـخـطـاءـ الـطـبـاعـيـةـ ،ـ وـتـنـزـهـ عـنـ جـدـاـولـ الـخـطاـ وـالـصـوـلـ ،ـ وـكـانـيـ بـالـمـؤـلـفـ قـدـ رـزـقـ باـصـرـتـيـ هـدـهـدـ فـيـ تـصـلـيـعـ (ـ مـلـازـمـ )ـ كـتـابـهـ ..

وختاماً لا بد لي من الاشارة الى هامش صفحـةـ ٢٨٧ـ التيـ فيهاـ «ـ تـنـظرـ مـقـاـلـةـ رـأـيـ فـيـ مـوـضـوـعـ عـلـمـ النـحـوـ لـدـاـ تـرـزـ مـهـدـيـ المـخـرـوـمـيـ صـ ١٠٩ـ »ـ أـهـ .ـ وـيـتـبـدـيـ لـيـ أـنـ هـنـاكـ كـلـامـاـ قـدـ سـقـطـ مـنـ هـذـاـ الـذـلـمـ ،ـ وـاـنـهـ لـيـحـارـ الـقـارـيـ فـيـ أـيـ مـصـادـرـ يـعـشـرـ عـلـىـ «ـ مـقـاـلـةـ المـخـرـوـمـيـ »ـ عـلـمـاـ بـاـهـ قـدـ أـشـارـ إـلـىـ ذـكـرـ وـجـودـهـ فـيـ صـفـحةـ ٤١٢ـ ضـمـنـ مـصـادـرـ الـكـتـابـ ..ـ فـكـنـ مـعـلـوـبـاـ مـنـ الدـكـتـورـ (ـ مـطـلـوبـ)ـ أـلـاـ يـدـعـ سـلـسلـةـ أـفـكـارـ الـقـارـيـ مـضـطـرـيـةـ فـيـ اـنـبـحـثـ عـنـ ذـكـرـ الـمـصـدرـ كـامـلاـ ..ـ كـمـاـ اـنـيـ لـاـ أـرـىـ وـجـهاـ مـقـبـولاـ مـنـ وـجـوهـ الـقـنـاعـةـ فـيـ اـغـفـالـ الـمـؤـلـفـ لـلـاعـلامـ الـتـيـ وـرـدـتـ فـيـ هـوـامـشـ صـفـحـاتـ الـكـتـابـ ..ـ غـيـرـ أـنـهـ عـلـلـ هـذـاـ الـإـغـفـالـ بـقـوـلـهـ «ـ لـمـ نـذـكـرـ الـاعـلامـ الـوـارـدـةـ فـيـ الـهـوـامـشـ ،ـ لـاـنـهـ مـذـكـورـةـ فـيـ مـصـادـرـ الـبـحـثـ وـمـرـاجـعـهـ فـيـ نـصـ الـكـتـابـ »ـ أـهـ ..

وبـعـدـ ،ـ فـمـاـ هـذـهـ الـأـسـطـرـ الـقـدـيـمـاتـ الـأـتـيـنـةـ رـقـيـقـةـ وـدـدـتـ أـنـ أـتـقـدـمـ بـهـاـ بـيـنـ يـدـيـ «ـ الـبـلـاغـةـ عـنـ السـكـاكـيـ »ـ ..ـ لـتـكـرـنـ تعـبـيرـاـ عـمـاـ يـجـيـشـ فـيـ حـنـايـاـيـ مـنـ سـرـورـ بـالـظـفـرـ بـمـثـلـ هـذـهـ الـدـرـاسـةـ الـرـائـعـةـ ..ـ وـالـتـيـ فـامـلـ أـنـ تـقـفوـهـاـ دـرـاسـاتـ وـصـيـنـاتـ أـخـرـ لـتـسـدـ الفـرـاغـ الـذـيـ يـتـسـأـلـ الـرـتـقـ فـيـ الـمـكـتـبـةـ الـعـرـبـيـةـ الـاسـلـامـيـةـ ..